

مراجعة الكتب المدرسية ووضع كتب مشتركة لتدريس التاريخ

جورج ستوبر (*)

ملخص: انطلاقاً من توجه معهد جورج إيكهارت، ترسم هذه الورقة خطأً لمراجعة الكتب المدرسية بدءاً من المراجعة التقليدية للكتب حتى قيام محاولات عدة لوضع كتب مدرسية مشتركة بمكانة ومنهجيات مختلفة-من كتب مدرسية ناتجة عن عمل مشترك وحاذية بالموافقة، إلى مشاريع مشتركة لإنتاج وحدات أو مواد تعليمية بديلة أو مكملية، وكلها لها قيودها وميزاتها. يتركز البحث في الورقة على المسعى الفرنسي-الألماني. فسلسلة كتب التاريخ لطلبة الصفوف الثانوية العليا أقر استعمالها رسمياً في فرنسا وفي الولايات الفدرالية الألمانية. هذه الكتب لا تركز على العلاقات الفرنسية-الألمانية بل على التاريخ العام، الأوروبي والوطني. لكنها لم تكن لتنجز لولا الدعم السياسي القوي. ونظراً للتعاون الطويل الأمد في مجال الكتب المدرسية، نادراً ما اضطر المؤلفون أن يعانون من تفسيرات مختلفة للماضي. الإشكال الأكبر كان في العمل على تقريب تقاليد التعليم والمناهج وشروط الامتحانات المختلفة.

كانت التربية خلال القرن التاسع عشر تحت سيطرة الدولة في معظم أجزاء أوروبا الغربية. وقد أدخل التاريخ كمادة دراسية عامة تعزز فهم التلامذة لانتمائهم إلى جماعة قومية تتجاوز بيئتهم الاجتماعية المباشرة. فتسرّب الشعور القومي إلى الكتب المدرسية والصفوف، واعتمد التعليم لشرعنة البنية المجتمعية والسلطوية. وقد ظهرت في الكتب، لاسيما في زمن الحروب، مواقف شوفينية حادة معادية للقوميات الأخرى المجاورة

(*) رئيس فريق الباحثين حول «الكتب المدرسية والنزاعات» في مؤسسة جورج إيكهارت للبحوث الدولية حول الكتب المدرسية. البريد الإلكتروني: stoeber@gei.de

ورافعة راية المطالب والمواقف الخاصة بقومية معينة على حساب مطالب قوميات أخرى ومواقفها.

انطلاقاً من هذا الوضع، سيتناول العرض التالي أموراً ثلاثة:

- نظرة موجزة إلى موضوع مراجعة الكتب المدرسية بوجه عام كأساس لوضع كتب مشتركة.
- محاولة التمييز بين مقاربات مختلفة لتطوير كتب مدرسية مشتركة لمادة التاريخ.
- ختاماً إلقاء نظرة أكثر تفصيلاً على الكتاب المدرسي الفرنسي-الألماني وتطوره.

أولاً: مراجعة الكتب المدرسية

لم يكن التوجه «القومي» للتربية يحظى بمساندة شاملة من التربويين، حتى في القرن التاسع عشر. فالتربويون التقدميون دعوا إلى تربية مرتكزة على حاجات الطفل عوضاً عن تلك الهادفة إلى تنشئة رعايا متسمين بالطاعة والخضوع. كذلك، عقدت مؤتمرات عالمية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر داعية إلى التربية على السلام^(١). لكن بالرغم من ذلك، لم تتمكن الحركات العالمية العمالية والعاملة من أجل السلام من مواجهة القوى الشوفينية القومية في المجتمعات التي دفعت بدولها في النهاية إلى الحرب العالمية (الأولى). إثر ذلك، كانت النتائج الكارثية ظاهرة، وبدا خطر الشوفينية جلياً، فقوي التوجه نحو السلام في مجتمعات عديدة. وأخذت روابط المعلمين وجماعات السلام تطالب بإعادة النظر في الكتب المدرسية وحذف الادعاءات الشوفينية والصور النمطية السلبية للجماعات المجاورة والمعادية كي لا «تسمم» عقول الناشئة (Schüddekopf, 1966, p. 11). وجرى العمل من أجل ذلك على مستويات دولية ثنائية ومتعددة الأطراف. ففي عام ١٩٢٦ أقرت عصبة الأمم ما سمي بقرار كازاريس^(٢) (UNESCO, 1949, pp. 16-20) الذي دعا إلى التعاون وإعادة النظر في الكتب المدرسية. إلا أن هذا القرار لم يكتب له النجاح، إذ لم يحظ بدعم في مراحل

(١) كان مؤتمر السلام العالمي في باريس عام ١٨٨٩ قد دعا إلى التربية على السلام وكذلك «برلمان أديان العالم» خلال معرض شيكاغو العالمي عام ١٨٩٣. تبعت ذلك مؤتمرات أخرى على نطاق عالمي.

(٢) أعطي القرار اسم المندوب الأسباني كازاريس الذي تقدم بالاقترح.

لاحقة. ومع ذلك، فإن جعل عصبة الأمم هذا الأمر موضع اهتمامها يمكن اعتباره نجاحاً بحد ذاته.

على مستويات أخرى كان العمل أكثر نجاحاً. فمنذ ١٩١٩ تأسست رابطة «نوردون» في الدول الاسكندنافية وضمنت كلا من الدانمرك والنرويج والسويد، وبعد ذلك جزيرة فنلندا. ويمكن اعتبار رابطة «نوردن» نموذجاً للتعاون الدولي حول الكتب المدرسية، إذ إن جميع كتب التاريخ المدرسية كانت تجري مراجعتها قبل النشر لجنة مشتركة بدعم من السلطات التربوية. وإلى جانب أنشطة عالمية أخرى، تأسست عام ١٩٢٦ رابطة معلمين فرنسية-ألمانية داعية بإلحاح إلى تحسين الكتب المدرسية. وقد أصدرت الرابطة طروحات أو توصيات حول التاريخ الفرنسي-الألماني بهدف تنقية الكتب من «التلوث» (Internationales Jahrbuch für Geschichtsunterricht, 1951, pp. 44-64). ومع أن هذه التوصيات لم يجر العمل بها بسبب الأوضاع السياسية في ألمانيا في ذلك الحين، فإنها كانت الأساس الذي بني عليه التعاون الفرنسي-الألماني الذي انطلق بعد الحرب العالمية الثانية، والذي تمثّل بتعديل طروحات تاريخية عديدة (Internationales Jahrbuch für Geschichtsunterricht, 1951, pp. 44-73).

من المنظور الألماني، مثّل التعاون بين ألمانيا وفرنسا واحدة من أولى المشاورات الثنائية حول الكتب المدرسية وأكثرها كثافة بعد الحرب بدءاً من العام ١٩٥١^(٣). فقد تولى معلمون ومؤرخون أكاديميون ألمان وفرنسيون^(٤) مراجعة كتب الطرف الآخر ومناقشة وجهات النظر وصولاً في معظم الأحيان إلى تفسيرات مقبولة من الجانبين. ونتج عن ذلك توصيات حول كيفية عرض موضوعات وحقب تاريخية (وجغرافية) مشتركة بين ألمانيا وفرنسا في الكتب المدرسية. إن هذه التوصيات تشير إجمالاً إلى أن المشاركين في تلك المناقشات توصلوا إلى تفسير مشترك للتاريخ، بينما تضمنت طروحات ما قبل الحرب حالات عديدة لم يتوصل فيها الباحثون الفرنسيون والألمان إلى اتفاق. إن التعاون الفرنسي-الألماني، إلى جانب الهيئة الألمانية-البولندية للكتب المدرسية التي بدأت عملها عام ١٩٧٢، غالباً ما اعتبر نموذجاً للتعاون الناجح في مجال الكتب المدرسية. تجدر الإشارة إلى أنه بغية تنظيم العمل في حقل مراجعة الكتب المدرسية، كان قد

(٣) توقفت الاجتماعات بين عامي ١٩٦٧ و١٩٨١. وفي نهاية القرن العشرين تحوّل العمل نحو إنتاج مواد تعليمية الكترونية، قبل أن يجري التركيز على كتاب التاريخ المشترك الفرنسي-الألماني.

(٤) في عام ١٩٨١ أضيفت مادة الجغرافيا.

تأسس عام ١٩٥١ في Braunschweig في ألمانيا مركز تبادل معلومات باسم «المعهد الدولي لمراجعة الكتب المدرسية». من هذه الجذور نشأت «مؤسسة جورج إيكهارت للبحوث الدولية حول الكتب المدرسية» منذ عام ١٩٧٥ كمؤسسة بحوث مستقلة ولكن بتمويل من الدولة^(٥).

بعد عام ١٩٩٠، برزت تحديات إضافية جديدة. إذ إن بعض دول المعسكر الشرقي سابقاً سعت إلى تغيير أنظمتها التربوية وعمدت إلى طلب المساعدة في وضع المناهج والكتب المدرسية. في بلدان أخرى، حيث نشأت نزاعات عنيفة، سعت بعض المنظمات للتدخل عبر الأدوات المعتمدة لمراجعة الكتب، فوضعت مشاريع عدة لوضع كتب مدرسية ومواد تعليمية مشتركة، بعد أن كانت المراجعة التقليدية للكتب قبل ذلك تقتصر على تنقية الكتب من الادعاءات الشوفينية والأنماط السلبية والروايات الأحادية، دون أن تتعرض للطابع الوطني للتربية والكتب المدرسية.

ثانياً: وضع كتب مدرسية ومواد تعليمية مشتركة

إن فكرة اختراق الحدود بكتب مدرسية مشتركة بين دول عدة لم تكن جديدة. ففي عام ١٩٥١ أعلن عن جائزة «للكتاب المدرسي الأوروبي»، لكن الإعلان لم يلق النجاح (Auf dem Weg zu einem europäischen Geschichtsbuch, 1952, p. 222)^(٦)، إذ إن الكتاب المدرسي الأوروبي الأول لم يظهر إلا عام ١٩٩٢، أي بعد أربعين سنة. إن معظم الكتب المدرسية المشتركة توضع بهدف التغلب على روايات تاريخية متباعدة أو متنازعة بين دول متجاورة أو بين جماعات مختلفة ضمن الحدود السياسية لدولة واحدة. إلى ذلك، تهدف هذه الكتب إلى دعم المقاربات الحديثة في تدريس

(٥) عقب الحرب العالمية الثانية انطلقت مراجعة الكتب المدرسية في ألمانيا بزخم كبير. وقد تأثرت بعوامل عدة: (١) إجراءات سلطات الحلفاء للتربية من جديد واجتثاث النازية. (٢) الزخم القوي لذوي التوجه العالمي في المجتمع (المدني) الألماني الذين ماشوا سياسات اجتثاث النازية أثر كوارث الحرب. (٣) التركيز الأوروبي (الغربي) والألماني المحافظ الداعم للأنشطة المساندة لدمج ألمانيا مع الغرب وبالتالي المؤيد لإعادة النظر في الكتب المدرسية. (٤) غير أن المواجهة بين المعسكرين ضيقت مجالات النجاح على جيران ألمانيا الغربيين وحلفائها الجدد في العقود الأولى وزادت من مواضع التوتر في السنوات اللاحقة.

(٦) It was offered by the *Society for the Conferring of the International Charlemagne Prize of Aachen*.

التاريخ. غير أن الناتج نادراً ما يكون كتباً مدرسية كتلك التي تعتمد في التعليم بصورة منتظمة ومستمرة على مدى فترة طويلة، كسنة دراسية مثلاً. ويعود ذلك إلى أحد التحديات الرئيسية التي يواجهها هذا النوع من مشاريع التاريخ المشترك. فالكتب المدرسية العادية يجب أن تتواءم مع المناهج الواقعة تحت سيطرة الدولة، وفي الكثير من الحالات، يجب أن تقرّها الدولة إذا لم تكن هي التي أصدرتها. لذلك عمدت مشاريع عديدة إلى نشر مواد تعليمية/تعليمية إضافية عن موضوعات معينة عوضاً عن إصدار كتب مدرسية تغطي المنهج بكامله.

يمكن تمييز فئات متنوعة من الكتب المدرسية/المواد المشتركة:

سلاسل الكتب المشتركة المقررة: تدعمها الحكومات وتعتبرها ملائمة للمنهج ومطابقة للمضامين الكاملة والأهداف بحيث يمكن استعمالها بانتظام في التعليم. وسنعود إلى هذه الفئة لدى عرض الكتاب المدرسي الفرنسي-الألماني بالتفصيل.

الكتب المدرسية العالمية غير المقررة: على غرار «الكتاب المدرسي الأوروبي» الصادر عام ١٩٩٢ (Delouche et al., 1992)^(٧)، وهي ليست للاستعمال المنتظم بل تستعمل بصورة رئيسة كمادة إضافية في حالات محددة. الفائدة المضافة هي في إغناء (أو مساواة) الرواية الوطنية (المحلية) في الكتاب المدرسي العادي بنظرة مختلفة من الخارج.

الكتب المدرسية البديلة المتعددة الأطراف: تسعى إلى «تصحيح»، أو بتعبير أدق، إلى تحديّ وجهات النظر المسيطرة وإضافة ما يلزم إلى الأقوال الرسمية. إنها مواد إضافية ناتجة غالباً عن مشاريع هدفها التغلب على أوضاع نزاعية. تراعي هذه الكتب وجهات نظر مختلفة وهي في الغالب لا تتماشى مع المواقف الرسمية أو السائدة، وهذا ما قد يضيّق مجال استعمالها. وإن درجة قبولها قد تدل على درجة تغلبها على النزاعات الدفينة. على سبيل المثال، فإن العديد من أعمال EUROCLIO في البلقان وأوروبا الشرقية يقع ضمن هذه الفئة (Mladenovski et al., n.d.).

حالة خاصة: كتاب أو مادة تعليمية بديلة ثنائية: أعدّها معهد الشرق الأوسط لبحوث السلام (PRIME, 2006) حول نزاع راهن. وهي إذ تروي الحكاية بصيغتين،

(٧) يشمل الكتاب الذي وضعه ثلاثة عشر كاتباً من بلدان مختلفة تاريخ أوروبا منذ العصور القديمة حتى الحقبة الحاضرة ويضم اثني عشر فصلاً ومقدمة. وقد ترجم إلى لغات أوروبية عديدة See also Khan Banerjee/Stober, 2010

فلسطينية وإسرائيلية، لا تهدف إلى دمج الروايتين، بل إلى جعل كل طرف يدرك وجود رواية الطرف الآخر في الكتاب نفسه. ولكن حتى هذه الصيغة لم تلقَ قبولاً من السلطات، فمِنَع استعمال الكتاب رسمياً في الصفوف من قبل الطرفين. هناك أيضاً مواد تعليمية إضافية حول مواضيع محدّدة تولى إعدادها طرفان أو أكثر: تنتج أحياناً عن التعاون التقليدي حول الكتب المدرسية. تهدف هذه المواد إلى التعمق في موضوع معين أكثر مما يتيسر في الكتب المدرسية، ويمكن استعمالها في موازاة الكتاب المدرسي الوطني المعتمد. وأخيراً وليس آخراً، هناك الأدلة التعليمية وأدلة المعلمين ولوائح المعلومات الأساسية عن مواضيع صعبة أو تاريخ مشترك، وهي التي تتولى إعدادها دولتان أو جماعتان أو أكثر.

إن مشاريع الكتب المدرسية المشتركة تستعمل أساليب مختلفة. فالكتاب المدرسي الأوروبي، مثلاً، يضم سرديات لعدة مؤلفين من جنسيات مختلفة حول حقب مختلفة. وحيث أن النصوص تجري مناقشتها من قبل المؤلفين، فإن المحتويات والتصورات التي قد تثير إشكالاً يمكن حذفها. غير أن الفروق في وجهات النظر الوطنية لا ترد في الكتاب ولا تظهر للقارئ.

في المواد التعليمية الأخرى ذات الإنتاج المشترك، تأتي الرواية حصيلة حوار. لكن المواقف المختلفة تكون ظاهرة ويشار إليها باعتماد مصادر تعبّر عن وجهات نظر مختلفة. إن الرواية التوفيقية أو وجهات النظر الأخرى قد لا تلقى قبولاً من قراء عديدين في بيئة يسودها النزاع. لذلك، استبدلتها PRIME بنهج الرواية المزدوجة، كما ورد ذكره. ومع أن هذا النهج لا يسعى إلى وصل خطوط النزاع، فإنه يلقي أيضاً معارضة حادة.

وأخيراً، أود أن أذكر دليل المصادر أو دليل العمل الذي يخلو من أية رواية يعرضها المؤلفون ويقتصر على مصادر وأسئلة أو مهام ليتولى التلامذة الإجابة عنها أو القيام بها. أما الإطار العام لهذا العمل فيجري وضعه من خلال المناقشة داخل الصف. وهكذا، فإن مقاربات عديدة غالباً ما تنشأ من مراجعة الكتب المدرسية لتوفير كتب متطابقة (إلا لجهة اللغة) لتلامذة منتمين إلى دول أو جماعات مختلفة^(٨).

(٨) لا يتناول هذا العرض الكتب والمواد التعليمية التي توفرها على نطاق تربوي عالمي دور النشر العالمية الانتشار.

في القسم الثالث من هذه الورقة، نقدّم عرضاً تفصيلياً لتطوير كتاب التاريخ الفرنسي-الألماني.

ثالثاً: كتاب التاريخ الفرنسي-الألماني^(٩)

في العام ٢٠٠٦ صدر أول كتاب تاريخ في العالم معترف به من قبل دولتين مستقلتين ككتاب مدرسي رسمي. وقد نشر بلغتين، ولكن بمضمون واحد. كان ذلك واحداً من ثلاثة أجزاء، صدر بعده جزء ثان عام ٢٠٠٨، وأعلن موعد صدور جزء ثالث في ربيع ٢٠١١. وقد تناول الجزء (الثالث) الذي صدر أولاً التاريخ المعاصر بعد عام ١٩٤٥، بينما يغطي الجزء الثاني الفترة الممتدة من القرن التاسع عشر حتى الحرب العالمية الثانية، وسيتناول الجزء الأول مادة التاريخ القديم حتى الأزمنة الحديثة. وتتولى نشر السلسلة دار نشر فرنسية للكتب المدرسية معروفة جيداً، هي «ناتان»، ودار ألمانية باسم «كليت»، مع العلم بأن مشروع الكتب هذا لم يكن بمبادرة منهما.

إن فكرة نشر كتاب مدرسي مشترك عن العلاقات الألمانية الفرنسية كان قد طرحها مؤرخ فرنسي وآخر ألماني منذ الثلاثينات. غير أنه صرف النظر عن الفكرة نظراً للأوضاع السياسية السائدة في ذلك الحين. في عام ١٩٦٣، أي بعد جيل كامل وحرب عالمية، وقعت فرنسا وألمانيا معاهدة للصدقة والتعاون المتبادل، وتأسس في العام نفسه «مكتب الشباب الفرنسي-الألماني». وفي عام ٢٠٠٣ نظم هذا المكتب «برلمان الشباب الفرنسي-الألماني» في برلين احتفاءً بمرور أربعين عاماً على توقيع المعاهدة. واتخذ الشباب قراراً يطالب بكتاب تاريخ بمضمون واحد لكلا البلدين للتخفيف من التحيزات الناتجة عن انطباعات خاطئة لدى الجهتين^(١٠). إنها الأهداف نفسها التي نادى بها مشروع مراجعة الكتب على مدى عقود، ويبدو أن الشباب تبنوا الفكرة التي أطلقها دعاة تعزيز العلاقات الفرنسية الألمانية والتي أتت على ذكرها في سياق خطبة أقيمت في إحدى جلسات البرلمان^(١١).

For the following see especially Claret, 2006; Defrance, 2009; Geiss, 2006; (٩) Riemenschneider, 2006.

Claret (2006:58); translation GS. (١٠)

(١١) لقد طوّرت الفكرة ودعا إليها كل من بريجيت سوزاي، المديرية المشاركة لمؤسسة التعاون الفرنسي-الألماني في أوروبا، ورودولف فون تادن، المدير المشارك الألماني للمؤسسة ومنسق العلاقات =

لقي هذا المطلب دعم المستشار الألماني والرئيس الفرنسي. في فرنسا، كانت الخطوات اللاحقة من مسؤولية وزارة التربية. أما في ألمانيا الاتحادية، فالتربية من مسؤولية الولايات الفدرالية، ووزراء التربية في الولايات الألمانية لا يرحبون بتدخل خارجي في شؤونهم. غير أن الممثل الرسمي للتعاون الفرنسي-الألماني، بيتر مولر، وهو في الوقت نفسه رئيس وزراء ولاية سارلند، ناصر الفكرة بقوة. وبالرغم من الشكوك التي أبدتها الهيئة الدائمة لوزراء التربية الألمان (وهي منظمة مهمتها العمل على تنسيق السياسات التربوية) تمكن مولر من إقناع مؤتمر رؤساء وزراء الولايات بالموافقة على المشروع وعلى اقتراح إنشاء مجموعة عمل قوامها خبراء من الدولتين لوضع تصور للكتاب. وتمت الموافقة على إنشاء مجموعة العمل من مختلف المستويات السياسية فعقدت أول اجتماعاتها في تموز ٢٠٠٣. وهكذا انتقل العمل على المشروع من السياسيين إلى الأكاديميين، جزئياً على الأقل، إذ إن السياسيين كان لهم ممثلوهم في مجموعة العمل التي ضمت إلى المؤرخين، مشاركين من وزارتي الخارجية الفرنسية والألمانية ووزارة التربية الفرنسية والمؤتمر الدائم لوزراء التربية الألمان.

تجدر الإشارة إلى أن مجموعة تحضيرية صغيرة كانت قد قررت تأليف كتب للصفوف الثانوية العليا منذ أن بدأ بحث المشروع على المستوى السياسي. وحين شرعت مجموعة الخبراء في عملها اعتمدت ما كان قد أنجز سابقاً أساساً للمخطط الذي وضعته للمشروع. وفي مطلع عام ٢٠٠٥، أي بعد حوالي سنة ونصف السنة من إنشائها، أطلقت مجموعة العمل دعوة لتلزييم المشروع تضمنت وصفاً لمفهوم الكتاب المرتقب وتفصيلاً لشروط التعاقد. وحيث أن الكتب المدرسية في كل من فرنسا وألمانيا تتولى إصدارها دور نشر خاصة، فقد أسندت مهمة تأليف الكتاب الفرنسي-الألماني ونشره إلى داري النشر الفرنسية ناتان والألمانية كليت. وقد تكفلت الداران بالعمل بتعاون وثيق، وكلفت كل منهما خمسة مؤلفين وضعوا النصوص وعرضوا نتائجهم على مجموعة الخبراء، وصدر الكتاب الأول في العام ٢٠٠٦، أي بعد سنة واحدة فقط من بدء العمل وبعد ثلاث سنوات من ولادة المشروع. هذه السرعة في الإنجاز كان مردّها إلى الاهتمام السياسي والشعبي المستمر الذي لقيه المشروع نظراً لقيمه الرمزية الرفيعة.

= الألمانية-الفرنسية في وزارة الخارجية. وقد توفيت بريجيت سوزاي في تشرين الثاني (نوفمبر) ٢٠٠٣، عقب انطلاق المشروع.

لقد برزت في سياق عملية التأليف مشكلات متنوعة تولت معالجتها مجموعات العمل:

سلطة القرار: في ألمانيا على الخصوص، أن يأتي القرار «من فوق» أي من السلطة الفدرالية، أمر يتسم بالحساسية. فالولايات الألمانية لها استقلاليتها في الشؤون التربوية، وتقبل فكرة كتاب مشترك بتدخل من السلطة الفدرالية ونتاج تسوية حتى قبل أن ينجز ويخضع للتدقيق يعتبر بمثابة فرض.

ومع صدور الكتاب، توقعت السلطات التربوية المختلفة مواجهة صعوبات لدى مراجعة مناهجها، إذ إن هذه المراجعة غالباً ما تنجم عنها الحاجة إلى كتب جديدة. أما في حالة الكتب الفرنسية الألمانية فلم يكن ذلك ممكناً لأن هذه الكتب سيستمر العمل بها لمدة من الزمن، ما يحول دون إدخال تعديلات جوهرية عليها. وبما أن تلك الكتب ستخصص للصفوف الثانوية الثلاثة العليا، فيجب مراعاة متطلبات الامتحانات، لاسيما الامتحانات الرسمية التي تجري في فرنسا وبعض الولايات الألمانية.

التفسيرات المتباعدة: إن المسائل النزاعية الهامة كان قد جرى بحثها وتم بثها خلال عقود عدة وبلغت أكاديمية مشتركة. وعليه، لم تنجم خلافات في التفسير حول المواضيع الرئيسة. وعلى وجه العموم، يبدو أن التفسيرات المتضاربة الخاصة بالطابع الوطني لكل من الدولتين لا وجود لها هذه الأيام. غير أن بعض المسائل السياسية ظهرت معقدة، كالعلاقة مع الولايات المتحدة حيث تتخذ فرنسا موقفاً نقدياً واضحاً، بينما موقف ألمانيا أكثر إيجابية، مستذكراً «التحرير» والدعم الاقتصادي والإنساني بعد الحرب. وعضواً عن البحث عن تسويات، جعلت هذه المواقف وتبريراتها مواضيع للمناقشة (في الصفوف). إلى جانب ذلك كله، نشأت صعوبات في الترجمة بين اللغتين بسبب اختلاف في فهم وتفسير مصطلحات معينة كالدولة والأمة والثقافة والدين، كما كانت مجموعة الخبراء قد أدركت.

الاختلاف بين المناهج: حيث إن الكتب المشتركة وجهت نحو المرحلة الثانوية العليا، فإنها لم تتأثر بتنوع المدارس والمستويات والمناهج المتواجدة جنباً إلى جنب في ألمانيا، إذ إن المناهج في هذه المرحلة أكثر مرونة من مناهج المراحل السابقة، لاسيما في ألمانيا. وعلى وجه الإجمال، توفرت درجة عالية من التوافق بين فرنسا وألمانيا بولاياتها العديدة. فكلما البلدين يعتمد نهجاً يدمج التاريخ «الوطني» ضمن إطار أوروبي مع بعض الجوانب العالمية. وهكذا، تسعى الكتب المشتركة إلى تلبية المقررات «الوطنية» بإضافة فصلين عن كل من التاريخ الفرنسي والتاريخ الألماني. أما الفصول

الأخرى فتغطي تاريخ البلدين أو التطورات الأوروبية العامة أو العالمية (إلى مدى محدود). وهكذا فإن الكتب المشتركة تجعل من الممكن تداخل التطورات التاريخية في كل من فرنسا وألمانيا.

الاختلاف في مفاهيم تدريس التاريخ: بالرغم من التشابه الإجمالي، هناك اختلاف بين طرق التعليم والكتب المدرسية الألمانية والفرنسية. فبينما تؤكد طرق التعليم ومؤلفو الكتب الألمان على تنمية قدرة الطلبة على إصدار الأحكام، تركز الكتب الفرنسية على المعرفة السليمة للطرق والمضمون وتعتمد نسقاً في غاية الدقة. والتوجه الذي اعتمد في الكتب المشتركة أقرب إلى النهج الفرنسي الذي لا عهد للطلبة الألمان به وكان موضوع انتقاد بعض التربويين الألمان. بالرغم من ذلك، فإن مؤلفي الكتب المشتركة وبعض مراجعها أيضاً يرون المنظورين الفرنسي والألماني متكاملين باعتبار المعرفة السليمة أساساً للتحليل والحكم على الأحداث. لذلك هم يثمنون الكتب، لا كتسوية جيدة فحسب، بل كجامع بين نهجين متساندين (Bendick, 2009; Körber, 2006; Markocowitz & Ulrich, 2009).

المخاطر المالية للناشرين: كانت عملية التأليف باهظة التكاليف. ولم يكن الناشرون على ثقة بأنهم سيغضون التكاليف ويحققون بعض الأرباح، إذ لم يكن هناك ما يضمن أن المعلمين سيقبلون استعمال السلسلة الجديدة كالكتب المدرسية الأخرى. فبغية دعم هذه المبادرة ذات الرمزية العالية، تعهدت السلطات الرسمية بشراء كميات معينة من الكتب وجرى توزيعها على المدارس. ويبدو أن معدل المبيع العالي لهذه الكتب مردّه في الدرجة الأولى إلى الدعم الرسمي الذي تلقتة. إلى جانب التحديات الناشئة عن طبيعة الكتاب الثنائية المرجع، كانت بعض جوانبه موضع نقد أيضاً كطريقة معالجة مواضيع مختلفة فيه. غير أن هذا حال أي كتاب مدرسي وطني كذلك، وهي لا تهمنا في إطار هذا العرض.

خاتمة

على مدى قرن من الزمن، سعت عملية مراجعة الكتب المدرسية إلى «تصحيح» الكتب المستعملة في المدارس دون التعرض لطابعها الوطني. أما في العقدين الماضيين، فقد ظهرت مشاريع من نوع آخر، اشترك في إعدادها أكثر من بلد وسعت إلى استبدال التفسيرات التاريخية المتنازعة بروايات توفيقية و/أو بإيراد منظورات مختلفة

تعتمد طرفاً حديثة في تدريس التاريخ. غير أن الكتاب المدرسي الوحيد الثنائي الذي أُقِرَّ رسمياً هو سلسلة كتب التاريخ الفرنسية-الألمانية للصفوف الثانوية العليا. في هذا المجال، لا بد من التأكيد على نقاط أربع:

١. لقد رأت هذه الكتب النور نظراً لأهميتها الرمزية والسياسية وهذا ما يسرّ التغلب على الحواجز الإدارية والشكلية الفاصلة بين أنظمة تربوية مختلفة.
٢. إن مشروع الكتاب المشترك أتى تنويجاً لعقود من التعاون في حقل الكتب المدرسية، جرت خلالها مراجعة الكتب وتمّ توضيح النواحي الإشكالية والخلافية، ووضعت بعد ذلك مواد تعليمية مشتركة.
٣. أما التباينات المتبقية التي لم تكن متوقعة فجرى تناولها في نصوص الكتب نفسها.
٤. بالرغم من الظروف المؤاتية والمساعدة المادية التي يسّرت توزيع نسخ كافية على المدارس، فإن الكتب قلّما تستعمل بانتظام ككتب مدرسية في أي من البلدين، إذ إن عدم التزامها بالمعايير الوطنية الخاصة بكل بلد يعتبر من نواقصها.

إن إصدار سلسلة الكتب المدرسية الفرنسية-الألمانية مشروع ناجح، لكن نجاحه ليس من الناحية الاقتصادية بالنسبة للناشرين، ولا من الناحية التربوية من حيث التقريب بين الصفوف في البلدين، بل من الناحية السياسية، إذ تبين أنه بالإمكان اختراق الحواجز التي تقيّمها الدول حول سياساتها التربوية. يبقى أن النوايا الطيبة مطلوبة من الجميع.

لائحة المراجع

- Basabi, Khan Banerjee, & Stöber, G. (2010). Textbook Revision and Beyond: New Challenges for Contemporary Textbook Activities. *Journal of Educational Media, Memory and Society* 2(2), pp. 13-28.
- Bendick, Rainer (2009). Das deutsch-französische Schulgeschichtsbuch. Die Möglichkeit zum binationalen Geschichtsunterricht und die nationalen Reserven der deutschen Geschichtsdidaktik. *Eckert.Beiträge* 2009/4. Retrieved from: <http://www.edumeres.net/urn/urn:nbn:de:0220-2009-00068>.
- Claret, Florent (2006). Von der Utopie zur Realität. Wie das deutsch-französische Geschichtsbuch geboren wurde. *Dokumente. Zeitschrift für den deutsch-französischen Dialog*, pp. 57-61.
- Christ, Herbert (2001). Das deutsch-französische Geschichtsbuch, *Histoire/Geschichte* –ein beispielloses Experiment, retrieved from (04.03.2011): <http://www.france-blog.info/pdf/herbert-christ-jena-geschichtsbuch.pdf>.

- Defrance, Corine, Marcowitz, Reiner, & Ulrich, Pfeil (2009). Einleitung. In Corine Defrance, Reiner Marcowitz, & Pfeil Ulrich (eds.): *Europa und die Welt*. Eckert. Dossiers 1), retrieved from: <http://www.edumeres.net/urn/urn:nbn:de:0220-2009-0001-011>.
- Defrance, Corine (2009). Das Deutsch-Französische Geschichtsbuch: Der 2. band und die Lehren aus der Vergangenheit. In: Corine Defrance, Reiner Marcowitz & Pfeil Ulrich (eds.), *Europa und die Welt*. Eckert. Dossiers 1, retrieved from: <http://www.edumeres.net/urn/urn:nbn:de:0220-2009-0001-012>.
- Delouche, Frédéric, Aldebert, Jacques et al. (2nd ed.) (1997). *Histoire de l'Europe: une initiative européenne*. Paris: Hachette 1992.
- Geiss, Peter (2006). Multiperspektivität und Komplementarität. Das deutsch-französische Geschichtsbuch als Herausforderung für Autoren und Herausgeber. *Dokumente. Zeitschrift für den deutsch-französischen Dialog* 5/06, pp. 97-102.
- Internationales Jahrbuch für Geschichtsunterricht (1951/52). Probleme der deutsch-französischen Geschichtsschreibung. *Internationales Jahrbuch für Geschichtsunterricht, (1)*, pp. 44-64.
- Körber, A. (2009). Das Deutsch-Französische Schulgeschichtsbuch aus fachdidaktischer Perspektive, In Corine Defrance, Reiner Marcowitz, & Pfeil Ulrich (eds.): *Europa und die Welt*. Eckert. Dossiers 1, retrieved from: <http://www.edumeres.net/urn/urn:nbn:de:0220-2009-0001-092>.
- Marcowitz, R., & Ulrich, P. (2006). Europäische Geschichte à la franco-allemande? Das deutsch-französische Geschichtsbuch in der Analyse. *Dokumente. Zeitschrift für den deutsch-französischen Dialog* 5/06, pp. 53-56.
- Mladenovski, Mire et al. (eds.) (2008). *Ordinary People in an Extraordinary Country. Yugoslavia between East and West. Everyday Life in Bosnia Herzegovina, Croatia and Serbia 1945-1990*. Euroclio, http://www.euroclio.eu/site/index.php/component/docman/doc_download/35-2008-en-ordinary-people-extraordinary-country.
- Pingel, F. (2nd ed.) (2010). UNESCO Guidebook on Textbook Research and Textbook Revision. Paris, Braunschweig: UNESCO, retrieved from: <http://unesdoc.unesco.org/images/0011/001171/117188e.pdf>.
- PRIME (2006). *Learning Each Other's Historical Narrative: Palestinians and Israelis*. Beit Jallah: PRIME.
- Riemenschneider, Rainer (2007). Un manuel scolaire peut-il être plurinational?: l'exemple du manuel d'histoire franco-allemand. In: *Les manuels scolaires, miroirs de la nation?*. Paris: L'Harmattan, pp. 75-86.
- Schüddekopf, Otto-Ernst (1966). *Zwanzig Jahre Westeuropäischer Schulgeschichtsbuchrevision 1945-1965*. Tatsachen und Probleme. Braunschweig: Limbach.
- UNESCO (1949). *A Handbook for the Improvement of Textbooks and Teaching Materials as Aids to International Understanding*. Paris: UNESCO, retrieved from: <http://unesdoc.unesco.org/images/0006/000630/063011eo.pdf>.